بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

في هذا الكتاب أردت أن أربط بين الشعر والموسيقى بل وأبين مدى الالتحام التام الذي لا يستطيع انسان أن يفصل بين كليهما فالموسيقا عرفت قبل نظم الشعربل قبل نشأة اللغات فالإنسان بداية كان يحاكي الطبيعة ومن هذه المحاكاة كان يعبر عن أحاسيسه الدفينة وحاجاته ومتطلباته الفطرية ولذلك لجأ الىالإشارة للتعبير عن متطلباته وبعد معاناة تواكبت إشاراته الصوتية مع المخارج التي اكتسبت صوتياتها من الطبيعة ، وبمضي الحقب استطاع الإنسان أن يعبر عن كل متطلباته الضرورية ولكي يعبر عن وجدانياته وحاجاته النفسية لجأ الى الأصوات والإشارات والحركات حتى استقامت له فنون الموسيقا والغناء والرقص التي كونت له منظومة نغمية تمس عمق دخائله وقد تبلورت هذه المنظومة في خوالج وخواطر وأحاسيس متباينة ومتشابكة حملتنا الى عالم الحلم في توافق وانسجام بنسب موسيقية دقيقة تتناسب مع القوانين النغمية والقوانين الكونية،والخواطروالخوالج التي تتعمق أصداؤها في العقل والوجدان ،.....وموسيقا الشعر لا تكمن في أوزانه وألحان كلامه وأنغامه فحسب ، بل في انتقاء الألفاظ الرشيقة الموسقة التي تتميز بطاقتها الشعرية وإمكاناتها الموسيقية لذلك وجدنا النقاد بداية من العصر الجاهلي حتى اليوم يحثون الشعراء على تأمل صياغة أسلافهم حتى يتمكنوا من إشباع حواسهم وتطويع نغامتهم بما يتوافق مع المناخ الموسيقى للشعر ولا نستطيع ونحن في هذه الدراسة أن نعزل موسيقا الشعر عن غيرها.

من الفنون كالغناء والرقص لأن موسيقا شعرنا ارتبطت بالغناء والرقص منذ القدم ولا زلنا نستمع الى القصائد الرائعة التي تزداد جلالا وجمالا مع الغناء. معنى ذلك أن الشعر قد اعتد بالايقاع جوهرا ثابتا منذ أقدم عصوره بل ذهب الدكتور شوقي ضيف الى ارتباط شعرنا العربي بالرقص وما يصحبه من قرع الأرض بالقدم وربط هذا الأمر بلوازم الروى المتحدة في كل بيت من أبيات القصيدة حتى تصفو الآذان بقرار النغم الموحد في قافية القصيدة.

نخلص من ذلك أن الشعر التحم قديماً وحديثاً بالموسيقا ولا نستطيع أن نفصل أيا منهما عن الآخر مهما كانت الحجج المساقة. وقد تعرض علم العروض لهجمات بعض الأدباء ممن استهواهم الشعر الحر، وممن استهوتهم قصيدة النثر، بدعوى الحداثة ، وهم يرون أن العروض قيد على كل جديد ،ومنهم من يقول: ما لنا والأجيال السا بقة ، فما هم بغض النظر عن أسمائهم إلا مرحلة تاريخية مرت بحلوها ومرها ،وهم يرون أن العروض ليست قواعد تصنع الشاعر، ولا هي مسائل حساب سيمتحن فيها ، و يرون أن العصر قد تفككت كل أواصره ،والأجدر بالشاعر أن يعبرعن هذا التفكك ، فما جدوي الخضوع لموسيقا الشعر والعصر ملي بالنشاز، والناس يتسابقون ويتشاجرون وكأنهم في غابة والأغرب أن زعماء الحداثة في الغرب قد تنكروا لها ، ودحضوها ، ولم يتخلوا عن الإيقاع لأن الإيقاع يعبر عن الحراك في كل جزء من كينونة الإنسان : قلبه وفكره وعضلاته وحركاته وسكناته ، فرغم دعوته إلى الحرية وكسر الجمود والانفكاك من كل قيد ، إلا أنه لم يأت بلغة جديدة ، ولا بنظرية جديدة تستطيع أن تحل إشكالية الإيقاع، ولا إشكالية التفكك السائد ، ولا إشكالية الهموم التي يتنفسها الناس ، واخذوا على عاتقهم رفض كل شيء ،بدعوى أنهم الجيل المناط به التغيير، ناسين أن الحياة نفسها تجري على نظام محكم له ضوابط وحدود

وبذلك أصبح الشعر كلاما عشوائيا ، ليس له جذور ولا فروع وأصبح الشاعر في متاهات لا يشغله فهم المتلقي لما يقول ، وأصبح دفاعه عن قضيته هجوما على الآخرين.

والإيقاع - في رأينا – يحتاج إلى قدرة تتمثل في الأذن الموسيقية اللاقطة ، ونحن لا نعتسف في طلب هذه القدرة ؛ لأن الشاعر بثقافته وموهبته يستطيع من خلال الممارسة والمران أن يحقق كل ذلك ، فإذا أردنا أن نعيب علم العروض بمنطقيته نخطيء خطأ جسيما ؛ لأن المنطق مستمد من فكر الإنسانية ، كما أن أوزان الشعر مستمدة من الفطرة البشرية ، وما قام به الخليل بن أحمد هو اكتشاف هذه النغمات ومحاولة نظمها في نسق خالص حتى يصل إلى قاعدة عامة ، تحكم كل وزن من الأوزان .

معنى ذلك أن هناك استقراء لفكر الإنسانية وفطرتها ، ويأتي بعد ذلك تقعيد هذا الاستقراء ، والمنهج الاستقرائي العقلي أتى بعد استقراء طويل شأن أي منهج علمي .

ولنسأل من يتحدث عن علم العروض ، وأنه لا جدوى منه ؛ لأنه لا يمثل فكر الشاعر ولا تجربته ، وأنه قيد يكبل ما يريد أن يقدمه من جديد :أيها أصعب مسائل الرياضة وفروعها ، أم مسائل علم العروض وفروعه؟ ومع ذلك لم يقل أحد بإلغاء مسائل الرياضة لصعوبتها ،معنى ذلك أن تدليل عقول البعض يفسد كل شيء ، فالسير في الغابات عسير وشاق ، ومع ذلك لم يقل أحد بعدم السير فيها، فمسألة الصعوبة إذن لا ترجع إلى تعقيد علم العروض ، اذن كان لابد لنا من هذه الدراسة والتي أسميناها "البنية الايقاعية في الشعر العربي " فإن وفقنا فنعما هي وإن لم نوفق فحسبنا أننا قدمنا موضوعا طريفا في بابه.

وعلى الله القصد ،....

المؤلف